وردة اليازجي

(ج) ورود الغمّ والرثاء

(تتمّة وخاتمة)

تتجرّد في مرثاة ولدها امين شمعون من الخواطر التي ليست هي حزنها مباشرة . فلا تأمّل هناك ، ولا فلسفة ، ولا دروس في حكمة الموت . بل تساؤل كيف تحتمل الحياة وقلبها مع ولدها دفين :

بأيّ فؤادٍ بعدك أبتغي السلوى وأنت فؤادي في الترابِ لهُ مأوى

. . . . . .

أرى نار قلبي كلّ يومٍ وليلةٍ تزيد لهيباً كلما زدتُ في الشكوى
لفقدِ أميني بل حبيبي ومهجتي وريحان روحي من غدوتُ بهِ لثوى

وبعض قلب الامّ في تصوّر اوصاف الولد التي تجعله في عينها فريداً بين الورى:

لقد كان في عينيّ ابهى من الدُمَى وأعذب في قلبي من المنّ والسلوى
اديب جميل الخلق والخلق طاهر الـ ـشمائل صافٍ قلبهُ طيّب النجوى
كصدر القنا، كالنصل، كالغصن في النقا كزهر الرُبى، كالبدر، كالرشا الاحوى
أحنّ لمرأى تربهِ كلّ ساعةٍ واهفو لمثواه وما تحتهُ يحْوَى
أيا قبره هذا العزيز ، فلا تدع هوام البِلى تهوى عليهِ كما تهوى
وحافظْ على تلك العظام فانها لكنز ثمين ليت قلبي لها مثوى

. . . . . .

ويا فلذة القلب الجريح الذي مضى بهِ خاطف الاقدار يستعجل الخطوا
برغم فؤادي ان اخطّ لك الرثا وأندب ذاك الوجه والمبسم الحلوا
يفتتُ قلبي كلّ شطر اخطّهُ فان يمحهُ دمعي السخين فلا غرّوا

ايتها السيدات والاوانس ،

أراكنّ تبكين وعزيز عليّ ان اكون سبباً في حملكنّ على البكاء . لذلك سأقصر عن تلاوة شيء من مرثاتها لاخيها الاخير

الانسة ميليا بدر وكيلة مدرسة الامريكان للبنات تقف وتقول :

— هو الالتفات الذي يكينا . ولكن لا تحذفي من الحاضرة شيئاً

— رغم البكاء ، ورغم هذه المناديل المنشورة في ايدي اخواتنا ؟

— نعم رغم البكاء

اصوات — لا بأس من قليل من الحزن والبكاء

— حسن يا سيداتي . وقد صدقتنّ . لا بأس من البكاء على آلام الغير . ولا بد في الشعر من الحزن والدموع . فقد قال ادجر آلن پو بعد كثيرين غيره ان العبقرية الشعرية عبقرية حزينة في جوهرها وان الطبائع التي تدرك ذلك وتحبهُ تقربُ من تلك العبقرية عند التعاطف في الشجو والكآبة

قلتُ إذن — ان شقيقها الشيخ ابرهيم كان آخر الباقين من اخوتها . فرثتهُ من قلبٍ متقطع لم يبقَ فيهِ صبر ومقدرة على الاحتمال . قلبٌ يعرف انهُ فقد أخاً تجددت بفقدهِ اللوعةُ على جميع الذين سبقوهُ . ويعرف كذلك ان الذي فقدهُ صاحب شهرة ذائعة فلا ينسى القلب في الحزن كبرياءهُ :

لم يبقَ للحزنِ لي صبرٌ ولا جلدُ ولا دموع تفي لي حقَّ من فُقدوا
وضاق صدري بما قد تراكم من حزني ولم يبق لي للاحتمال يدُ

. . . . . .

فارقتني يا شقيق الروح مبتعداً فما حياتي وانت عني مبتعدُ ؟
يا قائل القول ما زلت بهِ كلمٌ وصاحب الرأي حقًّا ليس ينتقدُ
تسير في إثرهِ الافهام قاصدةً مواقع الحق حيث الصدقُ والرشد

. . . . . .

فضلٌ سيبقى بقاء الدهر متصلاً عليك لا ينقضي أو ينقضي الابدُ
أنحى بهِ لا ينال الموت رفعتهُ حيًّا أكاد أراهُ حيث أفتقدُ

ثم تنسى هذا اذ تتجسَّم احزانها في شهيق واحد :

يا صخر، بنتُ الشريد اليوم منتشرٌ لها عليك توافٍ في الورى شُرُدُ
هيهات ما فقدت صخري، ولا نظمت دمعي، ولا وجدت خنساء ما أجدُ
بكت وحيداً ، وأبكي ستة ذهبوا لكلِّ محمدةٍ بين الورى وُجدوا

توفي الشيخ ابراهيم في مصر . ثم نقلت رفاتهُ إلى بيروت سنة ١٩١٣ . فرافقتها الشاعرة الحزينة . وهناك على ضريح العائلة تليت منها أبيات ، هذه بعضها :

ياقبرُ اهناً بما أوتيتَ من ظفر فقد حويتَ كرام البدو والحضر

حويتَ من هزّ ركن العلم مصرعهم من بعد ما ألبسوهُ اخزر الحبر

. . . . . .

يافير قد عاد ابراهيم ، وآأسفي يُنضوى إلى اسرةٍ من انعس الاسر

. . . . . .

من لي بخطّ يراعٍ منهُ مبتكرٍ كيما اخطُّ رثاه فيكَ مُبتكَر !

وفي حفلةٍ اقيمت لتأبينهِ في بيروت قالت في قصيدة شكر للمؤبنين :

اليوم ردّت مصرُ ما أخذت ويا أسفي ، فقد ردّتهُ في الاكفانِ

لم ينسَ عهدكمُ القديم وقد اتى كي لا يزال مجاور الاوطانِ

واشترك السوريون في البرازيل في إقامة تمثال للشيخ ابراهيم فأرسلت قصيدة الى شكري افندي الخوري صاحب جريدة « ابي الهول » وصاحب الاقتراح . ومن تلك القصيدة :

أكرم بها جنّةً ياسيداً عملاً يزين اسمك بين العرب والعجم

دعوتَ قومي إلى ما ترتأيهِ لهم صنعاً جميلاً وبرهاناً لودّهم

. . . . . .

ياسادةً جمعتهم نسبة الوطن المحـــبوب جمع الثريا غير منفصم

جدّدتمُ شخص من نهفو لرؤيتهِ كأنما هبَّ مبعوثاً من الرمم

. . . . . .

وما مديحي لكم حبرٌ على ورق بل خطّ في لوح صدري شكركم بدمي

لا تصدق على هذه الشاعرة تهمة ألحقوها بالنساء وهي ان الرجال يكتبون لهنّ . بل كانت هي صاحبة أشعارها . واكبر شاهد على ذلك — كما قال لي دولتلو سليمان افندي البستاني — انهم كانوا بدءًا يزعمون ان والدها واخوها حبيب وخليل ينظمون لها . فاتوا فرثتهم . فقال الناس : ولكن الشيخ ابراهيم حيّ فهو ناظم المراثي باسمها . فتوفي الشيخ ابراهيم فرثتهُ بأبياتٍ هي من خير شعرها في الصدق والامانة

وعلى ذكر الشيخ ابراهيم أقول انهم سيحتفلون قريباً بنصب تمثاله في إحدى ساحات بيروت العمومية . على ان شاعرة آل اليازجي لن تحضر ذلك الاحتفال ، ولن ترسل فيهِ دمعة وزفرة . . . ان جسدها يرقد تحت الثرى ، ترى مدينة الاسكندر حيث تتوي على هدير البحر الذي ما فتىء مهمهماً في مسامع الاحياء والاموات . . .

(٣)

نثرها

يقول جورج افندي باز انها لشرت بعض المقالات في الصحف والمجلات . واكبر الظن انها جُمعت كلها في « حديقة الورد » حيث نجد تقريظ مجلة الفردوس وفتاة الشرق وغير ذلك ، فضلاً عن مراسلتها لعائشة تيمور . على ان ليس في تلك السطور غير المجاملة والثناء . والرسالة الوحيدة التي عبّرت فيها عن رأي اجتماعيّ نُشِرت في « الضياء » قبل ان تجمع في « حديقة الورد » . وتهتم بهذا الرأي بعد أعوام لانهُ يعالج مشكلاً من مشاكل وقتنا . ومعلوم ان المشاكل الاجتماعية وغير الاجتماعية لا تحلّ في يوم وليلة . بل تقتضي مرور الزمن لتتناولها الاقلام بالتمحيص ، ثم يأتي المران بنبذ ما يحسن نبذهُ ، واستبقاء ما هو في مصلحة المجتمع

فهي تنتقد المرأة الشرقية لتفرنجها . حتى صارت تخجل باستعمال لغتها والسير على عادات وسطها . وتهزأ بقومها لتفاخر بانها اجنبية . ظنّا منها ان كلّ الارتقاء في اقتباس قشور المدنية وظواهرها في الازياء والاساليب وتلك الفوضى في السلوك التي تسميها خطأ باسم الحرية . في حين — تقول السيدة وردة — كان على المرأة الشرقية ان تنظر الى اختها الغربية من الوجه الآخر فترى اهتمامها بالامور الجدية ، وبراعتها في العلوم والفنون وسائر دوائر النشاط الانساني ، وكيف ان المرأة الغربية رغم تأنقها تقوم بواجبها نحو الاسرة والمجتمع واللغة والوطن . وتستحثُّ بنات الشرق على الرجوع عن ضلالهنّ واكبار اللغة العربية وإن هنّ تعلمن اللغات الاخرى وأحببنها ، وتغذية النفس بعواطف الوطنية والرغبة في النفع العام . ولتجعل نداءها أبقى أثراً تعمد الى ذكر بعض شهيرات العرب من كواتب وشواعر وتضرب بهنّ المثل لتستفزّ همّة بنات العصر وتدفعهنّ الى العناية بصالح الامة والوطنية

وهذا النداء الذي سمعنا مثلهُ ولكن بلهجة اخرى من عائشة تيمور ، وبعدئذٍ من باحثة البادية ، نصغي اليهِ اليوم باحترام وشكر وافتخار . نصغي اليهِ باحترام لانهُ صوت الاخلاص ، صوت الغيرة الخاصية ، ولانهُ جليل نبيل . ونصغي اليهِ بشكر . لاننا ان نحن سرنا اليوم خطوةً في طريقنا على بصيرة فبفضل هؤلاء الذين تقدّمونا وتركوا لنا صيحاتهم المباركة يتردّد بيننا صداها المتزايد بانضمام اصواتنا الى اصواتهم . ولنسمع هذا الهتاف بافتخار لان نداء الموتى لم يذهب ضياعاً . بل نهضت المرأة

في مصر، في سوريا، في جميع انحاء الشرق العربي بمقدار ما يسمح لها الوسط والاحوال. نهضت تتطلع الى الحرية النبيلة وتتعرّف حدودها، وتعزز قوميتها ووطنها ولغتها

تسمع هذا الهتاف بافتخار لان نفوسنا اتسعت وعمقت فصارت ترى للادب والشعر دوراً سامياً جليلاً. مضى وقت التقريظ والمدح والثناء وتنميق الالفاظ. وتناول الادب جميع مظاهر الحياة القومية في الاخلاق والتهذيب والفنّ والاجتماع والسياسة وترويج الدعوة الوطنية والنهوض بالنفوس الى آفاق العلوّ والنخوة والشمم والاستقامة. تفهم الادب اليوم كما يجب ان يفهمهُ العاملون في هذا العصر الحافل بعجائب العلم والاكتشاف والاختراع، هذا العصر الذي سخّر فيهِ الانسان العناصر لخدمتهِ وحاجتهِ. العجائب أصبحت مألوفة لدينا. فأيّ عجيبة في التلفون، والتلغراف اللاسلكي، والكهربائية، وفي قاطرات الحديد، والسفن والبواخر والطيارات، واشعة رنتجن التي تنفذ الى داخل الجسم فترى منهُ الخبايا والتفاصيل كمن ينظر السطحهِ! وأي عجيبة في عديد الاكتشافات في الرياضيات والكيماويات، في قياس الاشعة، في تحديد دورة الكواكب، في التخاطب بين القارات، في معجزات الطب والجراحة والهندسة! ان عجائب العلم لا تحصى وهي في خدمتنا في كل شأن من شؤوننا، في حياتنا الفردية والمنزلية، في نهضتنا القومية، في مناهضة المراتب وثورات الامم

نحن نعرف ان نعجب بما تركهُ الذين تقدّمونا ولكنّ في تحدّيهم التفهقر لا التقدّم. هم قالوا كلمتهم الموافقة لعصرهم. فعلينا ان نقول الكلمة التي توافق عصرنا. وردة اليازجي ترى كلّ المنفعة من علم المرأة في تربية البنين، ونحن نوافقها على ذلك. وسيوافقها كل جيل حصيف في كلّ عصر على ان هذا واجب المرأة الاوّل. وان اكبر فخرها ان تكون ملكة المنزل وعبدتهُ، وتعزية الرجل، والبطلة الكبيرة في سكونها وانزوائها، التي تتربّى في حضنها الذراري وتتهذّب الشعوب. ولكنّ تأثير المرأة ليس مقصوراً على هذا. لان الامومة ليست اختيارية، وقد تكون المرأة أفضل امّ وافضل زوجة فيظلّ عليها ان تتمّ أموراً اخرى شتى

المرأة اليوم تستطيع ان تعمل وتؤثر في جميع الجوانب. تعمل بتذكية العاطفة الوطنية في ابناء الوطن ببث الشهامة والنبل في نفوس رجالهِ، في تعزيز كيانهِ المعنوي بالحرص على مصالحهِ الجزئية، بالسهر على مهود اطفالهِ، بتكييف النفوس الغضّة من فتيانهِ، بترقية لغتهِ، بنشر فكرهِ، بتمجيد البليغ من اقلامهِ، بترويج

صناعته وفنّه ومنسوجاته ، بالاقتصاد وإحكام وضع الاشياء في مكانها . تؤثر بانعاش روح الوطن ، بتقدير تاريخه ، بالثقة في مستقبله ، بمبادئه وشاراته واعلامه !

الشرق ينهض ، ايتها السيدات ، وهنيئاً لمن ادرك كلّ ما في المسؤولية من فخر ، وكلّ ما في العمل من هناء ! الشرق ينهض ولو كانت جباه رجاله مثقلة بالاحزان وجماعات من شيبته منصرفة إلى اللهو والنسيان ! الشرق ينهض وهنيئاً لكل من كان بعمله وقلمه وصوته ذا أثر في تكييف النفوس ! وهنيئاً لطلاب العلم بالمكنات التي يتمتّعون بها ممتازين بذلك عن كلّ جيل سبقهم ، لذلك كان ما ينتظر منهم اعظم من كلّ ما جاء به غيرهم

علمت أمس الاوّل ان سيدات بيروت اكتتبن لصورة وردة اليازجي واهدينها الى دار الكتب الاهلية في تلك المدينة لترفع صورة الشاعرة بين صور كبار الرجال والعلماء . هذا في بيروت . وحسبها في تقدير فضلها هذا ان تجتمع اليوم على ذكرها السيدات المصريات وغير المصريات فيحيين من اسمها النفحة الشجية ! وليكن لكنّ من هذه الذكرى أثر يبقى بعد هذا الاجتماع . فلتحملهُ ربّات البيوت لان « وردة العرب » كانت بنتاً مباركة ، واختاً حصيفةً ، وزوجة وفيّة ، وامًّا صالحة ! ولتحملهُ ناظرات المدارس والمعلمات لأن الشاعرة بتعاطيها التدريس وعنايتها باخوتها وأخواتها في حداثتهم كانت مثالاً يحتذى مثلاً تستمدُّ منهُ التعزية في مهنة التعليم الشاقة النبيلة !

ولتحملهُ الطالبات اللائي سيجتزن عمّا قريب عقبة الامتحان السنوي . فاليازجية كانت تلميذة نشيطة ، وان لم يكن لها وسائطن ، وظلت طول حياتها تطلب العلم وتوصي بالمعرفة والترقية . وليقل ذكرها لكل منا أن العمل الصالح الذي تأتيه المرأة النابهة يتخطى جيلها ويخدم الاجيال التالية ، كما أن حبة القمح في أرض مخصبة تضمن تغذية الجماهير في مقبل العصور

فلتذكر نساء مصر وردة اليازجي واخواتها السوريات الناهضات كما تذكر نساء سوريا عائشة تيمور وباحثة البادية واخواتهما المصريات الناهضات ! وليتأثرن بذكرها وفضلها كما تتأثر بنات سوريا بنهضة المرأة المصرية فيتحسسن لها ويفاخرن بها !

وحسبي ابتهاجاً أنا ابنة القطرين ان ارسم صورةً ولو واهية من امرأة شرقية لاخوات شرقيات أحبُّ منهن الوطنية ، وأواهتف مثلهنّ بالحماسة ، وانشد من قدوتهنّ التقدم والعرفان وخير الاوطان !

(مي)